الفصل الثانى

الراهب توركويمادا والمكتب المقدس

قبل أن نتحدث عن المكتب المقدس، والعمل الإيمانى، نتناول حياة الراهب الإسپانى الشهير توماس دى توركويمادا (١٤٢٠ ـ ١٤٩٨). وتوركويمادا مدينة إسپانية صغيرة تقع بالقرب من بلد الوليد. عرف هذا الراهب بشدة تعصبه، ومن الناس من يعجب به إلى حد العبادة ومنهم من يتقزز لمجرد سماع اسمه.

ولد توماس عام ١٤٢٠ وظل ثمانية وخمسين عامًا خامل الذكر، ولكنه فى العشرين عامًا الأخيرة من حياته ترك أثرًا لا يُمحى فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وهو ينحدر من عائلة أرستقراطية سطع نجمها فى القرن الرابع عشر عندما منح الملك ألفونسو دى توركويمادا لقب فارس. وكان عمه چوان دى توركويمادا (١٣٨٨ ـ ١٤٦٨) مؤلفًا وعالم لاهوت بارزًا اكتسب رضا الڤاتيكان بدفاعه المجيد عن عصمة بابا روما من أخطاء البشر، وكافأه البابا بأن خلع عليه كسوة من القطيفة الأرجوان، كما عينه فى وظيفة كاردينال سان سيستو. والراهب توماس هو ابن أخى هذا الكاردينال المرموق واسم هذا الأخ بيرو فرناندیز. تميز توماس منذ بدء حياته برغبته الشديدة فى أن يصبح راهبًا ويدخل دير الدومينيكان. واستاء والده بيرو فرناندیز لذلك؛ لأنه كان يأمل أن يتزوج ابنه وينجب ذرية، ولكن توماس صمم على الالتحاق بدير سانتا كروز فى سيجوفيا، حيث عين رئيسًا لهذا الدير، وأظهر توماس منذ التحاقه بالدير نزعة واضحة للزهد وآثر أن يمتنع امتناعًا كاملًا عن أكل اللحوم والاكتفاء بالنزر اليسير من الطعام، وأيضًا رفض أن يلبس تحت رداء الرهبنة أية ملابس قطنية تحميه من خشونة ملابس الدومينيكان، وإمعانًا فى الزهد والتقشف اعتاد فى معظم الأحيان أن يلبس قميصًا شائكًا مصنوعًا من الشعر، كما أنه كان يسير حافى القدمين. وتعجب كثيرون من تواضعه نظرًا لانتمائه إلى عائلة نبيلة وميسورة الحال، وذاع ورعه وتواضعه فى أرجاء مملكة كستيلا، وعندما أحضر الملك هنرى الرابع إيزابيلا أخته غير الشقيقة حتى تتم تربيتها تحت إشرافه، انتزع منها وعدًا بإنشاء محاكم التفتيش فى مملكتها إذا هى أصبحت ملكة. وعندما تولت إيزابيلا عرش كستيلا على نحو ما فصلنا فى الفصل الأول، أصبح هذا الراهب لصيقًا لها وموضع ثقتها وأقرب وأحب المستشارين إلى قلبها.

ورغم تعصبه الشديد فمن المؤكد أن توماس دى توركويمادا كان مخلصًا فى تدينه، وأنه أراد أن يثبت دعائم الكنيسة الكاثوليكية بأى ثمن، وأنه كان لا يسعى إلى أى مجد شخصى. ومن ثم اعتبره البعض وليًّا من الأولياء الصالحين، ولكن يبدو أن كراهيته لليهود كانت مضرب الأمثال، ويعزو بعض المؤرخين هذه الكراهية إلى أن جده الأكبر الفارس فرناندیز دنس دم عائلته عندما تزوج يهودية على جانب كبير من الثراء فى نهاية القرن الرابع عشر فى فترة كان فيها اليهود الإسپان يعيشون فى نوع من الأمن والسلام والرغد والرخاء. ويبدو أن جد توماس كان سعيدًا مع زوجته اليهودية، ولكن مع تصاعد المشاعر المعادية لليهود وانتشار الشائعات السيئة عنهم، سبب له زواجه باليهودية قدرًا من الحرج، ومن الجائز أن الراهب توماس دى توركويمادا أراد بالتعبير عن كراهيته المشبوبة لليهود أن يتنصل من أى دماء يهودية قد تكون عائلته قد ورثتها من أسلافها، الأمر الذى يذكرنا بأن أكثر الناس تحمسًا لإنشاء محكمة تفتيش فى إشبيلية وأشدهم إمعانًا فى التنكيل باليهود المشكوك فى ولائهم وصدق تحولهم للدين المسيحى هو ألونسو دى سبينيا ذلك الرهب الفرانسيسكانى، الذى تحول من اليهودية إلى المسيحية، ولعل هذه الغلواء فى التحمس للمسيحية نوع من المزايدة ودرءًا للشبهات حتى لا تحوم حوله، غير أن مسألة وجود دم يهودى فى عروق عائلة توركويمادا مسألة خلافية لدى المؤرخين، ففى حين يؤكدها السكرتير الخاص للملكة إيزابيلا فرناندو ديل بلجار توى إلا أن المؤرخ جيرونيمو زورينا ينفيها نفيًا قاطعًا.

والجدير بالذكر أن البابا سكستوس الرابع قام بناء على طلب من إيزابيلا بعقد مؤتمر حول محاكم التفتيش حضره الكرادلة الإسپان، وتقرر فى هذا المؤتمر أن يتولى رؤساء الأساقفة الإسپان إدارة شئون محاكم التفتيش بكل أمانة وتفانٍ وإخلاص؛ بحيث لا يسمح لأى أسقف تجرى فى عروقه أى دماء يهودية إجراء التحقيق؛ ويذهب رافائيل ساباتينى مؤلف كتاب «توركويمادا ومحاكم التفتيش» إلى أن مثل هذا القرار دليل دامغ على خلو توركويمادا من الدم اليهودى، ولكن آخرين لا يذهبون هذا المذهب؛ لأن الرجل كان يتمتع بحظوة عظيمة لدى الملكة إيزابيلا وبفرض أن هذه الملكة كانت تعلم بوجود بعض الدماء اليهودية فى كاهن اعترافها، فإن ذلك لم يؤثر على الإطلاق على ودها وتقديرها له؛ حيث إنها كانت كمبدأ عام لا تحمل أى بغض شخصى لليهود المتحولين إلى الدين المسيحى، فضلًا عن أن الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا كانا على خلاف دائم مع البابا سكستوس الرابع، وليس من المستبعد أنهما لم يكترثا بأوامره وتعليماته.

شغف توماس دى توركويمادا بالعمارة وكانت هوايته المفضلة، ويقال إنه تخلى عن جهامته وصرامته فى حضرة البنائين الذين عاملهم برقة ومودة. وقام توركويمادا بتشييد عدد من المبانى

والمنشآت العظيمة مثل كنيسة مدينته توركويمادا، والجسر المقام على نهر بنسوبرجا. ويعتبر دير القديس توماس فى مدينة أفيلا أعظم منشآته على الإطلاق، وأنفق كل موارده التى حصل عليها من محاكم التفتيش فى زخرفة هذا الدير وتزيينه، واستغرق بناء الدير عدة أعوام، وقد مكث توركويمادا فى هذا الدير العظيم، كما أنه استخدمه كسجن لحبس ضحاياه من المهرطقين.

وبمجرد تعيين هذا الراهب رئيسًا عامًا لمحاكم التفتيش، حتى بدأ بإصلاح القوانين المنظمة لعملها، وأصدر تعليماته الشهيرة البالغ عددها ثمانية وعشرين بندًا، ويوضح البند الأول فى هذه التعليمات أسلوب العمل فى محكمة التفتيش التى تقام لأول مرة فى مكان ليست فيه أصلًا محاكم تفتيش. فى مثل هذه الحالة اشترط توركويمادا استدعاء جميع سكان المكان إلى الكنيسة فى أحد أيام الآحاد أو الإجازات العامة، ويقوم أبلغ الخطباء أو واحد من المفتشين بإلقاء كلمة بهذه المناسبة. وعندما تصل الخطبة إلى نهايتها يعلن الواعظ أو الخطيب ضرورة قيام جميع المسيحيين الحاضرين بالقسم على الصليب أو الأناجيل لنصرة محاكم التفتيش وتذليل العقبات أمامها ومساندة العاملين فيها.

ثم تعلن مهلة أو فترة سماح تتراوح بين الثلاثين والأربعين يومًا تمنح لكل المهرطقين والمرتدين والمارقين الذين يمارسون الشعائر اليهودية رغم اعتناقهم الدين المسيحى للإعلان عن توبتهم، فإذا تابوا فى المهلة الممنوحة تعاملت معهم محكمة التفتيش باللين والرحمة طالما كانت توبتهم خالصة وطالما أنهم اعترفوا بذنوبهم وأبلغوا عن ذنوب جيرانهم. ورغم اعترافهم بالذنب فلم يكن هناك مناص من إنزال عقوبة مخففة عليهم مع استبعاد عقوبة الحرق أو مصادرة ممتلكاتهم وممتلكات عائلاتهم. وتعين على التائبين أن يقدموا اعترافًا مكتوبًا لمحكمة التفتيش التى عاقبتهم بالامتناع عن لبس الثياب القشيبة والفاخرة، وعن امتطاء صهوات الجياد، وعليهم كذلك عدم حمل السلاح طوال حياتهم. ورغم السماح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم فإنه يتعين عليهم أن يتوقعوا أن تطالبهم محكمة التفتيش بتسليم جزء من ممتلكاتهم إليها لاستخدامه فى أغراض مقدسة مثل الحرب التى شنها الملك فرديناند وإيزابيلا على المسلمين فى غرناطة بناء على الإرشادات والتوجيهات الصادرة من توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش.

وإذا انقضت فترة المهلة دون أن يقدم المهرطق للاعتراف بذنبه ثم اعترف بذنبه من تلقاء نفسه فى وقت لاحق، فإن محكمة التفتيش تعامله برأفة فلا تأمر بإحراقه، ولكن المهرطق فى هذه الحالة يفقد أحقيته فى الاحتفاظ بأى من ممتلكاته التى تؤول إلى محاكم التفتيش التى تنزل به عقابًا أشد

صرامة إذا اتضح أن ذنبه جسيم؛ إذ يمكن أن يحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن المحكمة تمتنع عن حرقه مكافأة له على تقديم نفسه طواعية للمحكمة.

وإذا جنح الأطفال إلى الهرطقة تحت تأثير ذويهم السيئ، فينبغى على محكمة التفتيش أن تعامل هؤلاء الأطفال بلين ورأفة، وإذا كانوا دون العشرين وتطوعوا بالتبليغ عن ذويهم، فإن المحكمة تفرض عليهم ضروبًا من التوبة مخففة وتعلمهم مبادئ الإيمان الصحيح بالدين المسيحى.

وكذلك ينبغى مصادرة كل ممتلكات المهرطقين والمرتدين، فإذا كان المهرطق ثريًّا وشعر بدنو القبض عليه وباع أملاكه للغير فمن حق محكمة التفتيش إذن أن تصادر هذه الأملاك حتى بعد بيعها؛ لأنها كانت ملكًا للمهرطق فى فترة هرطقته. ويحق للمهرطق أو المرتد المقبوض عليه أن يتصالح مع الكنيسة، ويجب عليها أن تقبل عودته إلى حظيرتها إذا كانت توبته نصوحًا، وعندئذ يتعين على المهرطق المخلص فى توبته تبليغ السلطات عن أصدقائه ومعارفه، وإذا اتضح أن المهرطق لا يتحرى الصدق فى اعترافاته، فإنه يسلم على الفور إلى الذراع العلمانية للكنيسة، أى إلى السلطة المدنية لإعدامه.

وإذا عجزت محكمة التفتيش عن إثبات ذنب المتهم إثباتًا قاطعًا، فمن حقها أن تزج به فى السجن، وتقوم بتعذيبه لتعرف منه الحقيقة التى عليه تكرار الإدلاء بها فى غضون ثلاثة أيام.

وحظرت التعليمات التى أصدرها توركويمادا نشر أسماء الشهود حتى لا يتمكن المتهمون من إلحاق الأذى بهم، وإذا ثبت بعد الاستدعاء والتحرى أن أيًّا منهم مذنب، يمكن نشر ملخص الشهادات التى أدين بمقتضاها دون الكشف عن أسماء الشهود ودون ذكر أية معلومات من شأنها إماطة اللثام عنهم، ولكن يتعين على المحامين المدافعين عنه الانسحاب من القضية إذا تبين لهم أن المتهم مذنب.

وإذا لاذ منهم بالفرار حتى يتفادى القبض عليه، فينبغى تعليق مرسوم على أبواب الكنائس فى كل أنحاء المقاطعة يأمره بتسليم نفسه إلى المحققين خلال ثلاثين يومًا، فإذا لم يفعل هذا يصبح ذنبه مؤكدًا وثابتًا عليه.

وإذا ثبتت تهمة الهرطقة على رجل متوفٍ، فإنه ينبغى محاكمته، فإذا ثبت أنه مذنب يجب نبش قبره لاستخراج جثته وإلقائها فى النار، كما ينبغى مصادرة أملاكه، ولكن من حق عائلته أن تدافع عنه، فإذا فشلت فى إثبات براءته فإنها تتعرض للعقوبات المفروضة على أبناء المهرطقين.

وأيضًا تنص تعليمات توركويمادا على أن تقوم السلطات المحلية بحسن استقبال المفتشين

وتسهيل مهمتهم، فإذا أحجموا عن ذلك توجه إليه تهمة مساعدة المهرطقين وتشجيعهم على الهرطقة.

وإذا أعدم أبناء المهرطقين بسبب ثبوت تهمة الهرطقة عليهم وتركوا وراءهم أطفالًا قُصر أو أشخاصًا غير متزوجين، يجب أن يتولى المفتشون فى محاكم التفتيش تعليمهم مبادئ الدين المسيحى الحق، ويمكن للعطف السامى والأريحية الملكية أن تشملهم وتعينهم على الحياة ويعطى البنات منهم مبلغ صغير من المال يعينهن على الزواج كما يمكنهن الالتحاق بدير الراهبات. ويبدو أن هذه الفقرة فى القانون لم توضع موضع التنفيذ قط؛ لأن المؤرخ الثقة المتخصص فى محاكم التفتيش للورنت يؤكد أنه بحث جاهدًا فى أرشيف هذه المحاكم فلم يجد تطبيقًا واحدًا لهذا البند.

وإذا تصالح تائب مع الكنيسة واهتدى إلى الدين الصحيح وصودرت ممتلكاته قبل توبته، فإن من حقه الاحتفاظ بأية ثروة قد تؤول إليه بعد إعلان هذه التوبة، وينبغى كذلك وفقًا لتعليمات توركويمادا تحرير العبيد التابعين للمهرطقين وإطلاق سراحهم، وحتى إذا سمحت محكمة التفتيش لمهرطق تائب أن يحتفظ بجزء من ممتلكاته فإنه يفقد حقه فى الاحتفاظ بأى من عبيده.

ويجب على أى موظف تربطه علاقة بمحاكم التفتيش أن يمتنع عن تلقى الهدايا من المتهمين أو المشتبه فيهم حتى لا يتعرض للحرمان الكنسى، وإذا اتضح أن موظفًا تلقى هدية فتوضع عليه غرامة تعادل قيمتها ضعف ثمن الهدية.

وإذا اختلف أعضاء محكمة التفتيش فيما بينهم فعليهم الاحتكام إلى توركويمادا، أما إذا ارتكب المحقق نفسه خطأ فيجب معاملته برأفة ومراعاة الرحمة فى الحكم عليه، وإذا ظل سادرًا فى غيه فيجب تبليغ توركويمادا بأمره لاستبداله بمحقق آخر.

وإذا عرضت مشكلة لا تغطيها هذه التعليمات فإنه يتعين على المفتش أن يعالجها ويصل إلى القرار المناسب بشأنها بحيث يخدم قراره الملك والله معًا.

لم يكتف توركويمادا بمعاقبة المهرطقين على نحو ما أسلفناه، ولكنه أيضًا سعى إلى التصدى للانحرافات الاجتماعية والجنسية، فهو يعاقب بالحرق تعدد الزوجات والممارسات المثلية، غير أنه واجه مشكلة عويصة هى تفشى الانحلال الجنسى بين رجال الكنيسة، فبعض آباء الاعتراف كانوا يستغلون انفرادهم ببعض الحسناوات لمراودتهن عن أنفسهن، ونحن نقرأ عن راهب من أتباع جيرومى بيرالت يضبط وهو يمارس الجنس مع غلام فى الرابعة عشرة من عمره كان فى رعايته وتحت إشرافه، وجاء حكم توركويمادا ومحاكم التفتيش على هذا الراهب مخففًا للغاية، فقد صدر

الحكم بحبسه فى الدير لمدة عام، ولكنه سمح له بإقامة القداس. ومن المفارقات أن يأتى الحكم على الغلام أكثر قسوة، فقد اقتيد فى الشوارع ليجلد خمس جلدات فى ركن كل شارع، كما أنه أجبر على حمل لافتة توضح نوع الذنب الذى اقترفه، ويبدو أنه لفظ أنفاسه نتيجة تكرار جلده فى حين ظل الراهب الذى واقعه حيًّا يُرزق.

وهناك أيضًا حالة راهب آخر يدعى «بيويو» كان أب اعتراف عدد من الراهبات فى دير القديسة مونيكا، واستطاع هذا الراهب أن يغوى خمس راهبات ويراودهن عن أنفسهن، ورغم ذلك فقد عفت عنه محاكم التفتيش، ويبدو أن عقاب هؤلاء القساوسة والرهبان المنحرفين لم يتجاوز سجنهم لفترة قصيرة فى الدير ومنهم من تلقى اعترافات الخطاة.

والجدير بالذكر أن كراهية توركويادا المشبوبة لم تقتصر على اليهود والمهرطقين فحسب، بل امتدت إلى المسلمين، فعندما واجهت حملة الملك فرديناند ضد المسلمين فى غرناطة مشاكل خطيرة باتت تهددها بالفشل، أسرع توركويادا المشغول آنذاك ببناء دير القديس توماس بأفيلا إلى إنقاذ الحملة من الانهيار، فتوقف عن استكمال الدير وأتى باثنى عشر بغلًا حملها بزلع مليئة بالذهب أرسلها إلى الملك لتمكينه من دحر المسلمين. ورغم فشل هذه الحملة فى تحقيق الغرض منها ورغم اضطرار الملك إلى رفع الحصار عن مدينة لوجا بسبب الأمراض التى تفشت فى صفوف قواته، فإن هذه الحادثة تبين مدى العلاقة الوطيدة التى ربطت توركويادا بالملك فرديناند وزوجته إيزابيلا.

المكتب المقدس

عندما تثور الشكوك حول هرطقة أى شخص، كانت محكمة التفتيش تقتاده إلى غرفة خاصة مكسوة بالسواد فى مبناها الذى أطلق عليه اسم «البيت المقدس» أو «المكتب المقدس»، وكان يكفى أن يتفق شاهدان فى شهادتهما ضد هذا الشخص لتقديمه إلى المحاكمة. وبطبيعة الحال كان هذا الشخص يتعرض للتعذيب، وكان من عادة محكمة التفتيش إلقاء القبض على المتهم أثناء الليل، وكان «المألوفون»، أى الحراس، يأتون إلى بيت المهرطق ويطرقونه بعنف طالبين الدخول، فإذا أبدى أصحاب البيت أية مقاومة يستخدم «المألوفون» العنف لاقتحام المنزل، ثم يطلب «المألوفون» من الضحية ارتداء ملابسه والاستعداد للخروج معهم فورًا. وكانت الظلمة الحالكة تخيم على الحجرة التى يحبس فيها المهرطق ويخترقها بصيص من النور، وكانت هناك فى نهاية الغرفة المعتمة مائدة مغطاة بالقطيفة السوداء تضيئها شمعة وعليها صورة المسيح على خشبة الصليب إلى جانب نسخة من الكتاب المقدس، وكان بجوار المائدة منصة عليها شمعة أخرى، ومن فوق هذه المنصة يتلو

أمين محكمة التفتيش قائمة الجرائم الموجهة ضد المتهم. وكان المحققون يجلسون على المائدة وهم يرتدون أرديتهم البيضاء وأغطية رءوسهم السوداء.. ويقف الحراس خلف المتهم الذى اقتادوه، ويتظاهر كبير المفتشين بعدم الالتفات إلى المتهم والتظاهر بالانشغال بقراءة بعض الأوراق أمامه، وكأن الهدف من هذا بث الرعب فى قلبه، وأخيرًا يضع كبير المحققين الأوراق جانبًا ويبدأ أمين المحكمة بالسؤال عن اسم المتهم وعنوانه وبعض البيانات الأخرى.

ويسأل المحقق المتهم عمَّ إذا كان يعرف السر فى القبض عليه. فيرد المسكين بأنه برىء وطاهر الذيل، ثم يمضى المحقق فى سؤاله إذا كان له أعداء وإذا كان يعترف بانتظام لأب الاعتراف. وكان المحقق يهدف من وراء ذلك الضغط على أعصابه وحمله على الاعتراف والوشاية بأفراد عائلته وجيرانه.

وإذا انهار المتهم فخير وبركة، أما إذا كان المتهم عنيدًا فإن المحقق يتبع معه أسلوبًا آخر يتمثل فى طمأنته بأنه يريد له الخير وأنه إذا اعترف بذنبه وتاب عنه فسوف تغفر له الكنيسة خطاياه، ونفعت هذه الحيلة مع عدد من المتهمين الذين يقعون فى الفخ والذين يدللون على صدق توبتهم بالوشاية بالآخرين. أما إذا استمر المتهم فى عناده وأصر على براءته وأكد أنه لا يعرف أى مهرطقين آخرين فيتم اقتياده إلى زنزانته، ثم يستدعى للتحقيق معه مرة أخرى، وفى حالة تشبث المتهم بعناده يقوم المحقق بالزج به فى السجن بحجة أنه فشل فى إثبات براءته.

عندئذ يلجأ المحقق إلى اتباع أساليب أكثر خبثًا ومكرًا مع المتهم، فيزعم أنه مقتنع ببراءته، ولكنه مضطر للاحتفاظ به فى السجن؛ لأن السجانين ليسوا مقتنعين ببراءته، ثم يرسل المحقق إليه بعض الزوار لزيارته فى السجن بهدف التباسط معه والإيقاع به فى الكلام.

وقد يشم المحقق رائحة الهرطقة فى أى كلمة قد يتفوه بها المتهم عن غير قصد، وأيضًا كان هؤلاء الزوار يحرضونه على الاعتراف بالذنب والندم عليه حتى يأتى الحكم عليه مخففًا، والخافى على المتهم أن حارسًا مختبئًا كان يسمع ما يدور فى المقابلة ويسجله.

وأحيانًا كانت هذه الخدعة لا تنفع لأن المتهم برىء بالفعل، عندئذ تدس له المحكمة سجينًا آخر يشاركه فى نفس الزنزانة يتظاهر بأنه مظلوم ويستغل طول عشرته معه ليوقعه فى الكلام.

وفى حالة فشل كل هذه الأساليب يعاد السجين إلى الغرفة المعتمة ليقف أمام المائدة التى تحمل الصليب ـ الأناجيل ـ الشموع، ولتحطيم أعصابه يغمر المحقق ضحيته بوابل من الأسئلة يخرج من فمه كالقذائف بحيث تربك المتهم وتجعل أقواله مضطربة، ومتضاربة ويغتنم المحقق

هذه الفرصة كى يتهم ضحيته بالكذب ويأمر باقتياده إلى غرفة التعذيب الذى أوصى توركويادا باستخدامه، علمًا بأن محاكم التفتيش فى بواكيرها أحجمت عن استعماله.

وطبقًا للمادة ١٥ من تعليمات توركويادا، يجوز للمحققين استخدام التعذيب مع المهرطق إذا كانت هناك أسباب تدعو للشك فيه.. ولكن التعليمات حظرت عليهم إراقة دم المهرطق؛ لأن قانون الكنيسة يمنع المسيحى من إراقة دم أى إنسان، وأيضًا نصت التعليمات على أنه فى حالة وفاة من هم تحت وطأة التعذيب فإنه يجب على المحقق المسئول عن وفاته أن يطلب السماح والمغفرة من كاهن زميل له، وكان التعذيب يمر بخمس مراحل على نحو ما فصلت فى كتابى «محاكم التفتيش».

والجدير بالذكر أن أول من استن نص التعذيب فى قانون محاكم التفتيش هو نيكولاس إيميريك، الذى كان كبير المفتشين فى مملكة أراجون فى القرن الرابع عشر، غير أن المحقق برنارد جوى سبقه فى استحداث نص التعذيب، ومعنى هذا أن توركويادا استند فى استنان التعذيب إلى آراء السابقين عليه.

واكتشفت الحملة الفرنسية التى هاجمت إسبانيا فى سجن محكمة تفتيش طليطلة آلة تعذيب جديدة وجهنمية لم تعرف من قبل، وهى عبارة عن تمثال على هيئة العذراء مريم غطت مقدمته المسامير والسكاكين وكانت هناك رافعة مركبة فى التمثال فتقوم بتحريك ذراعى التمثال بحيث يحتضنان ضحيته ويضغطان بشدة على جسده حتى تنكسر عظامه.

ويروى المؤرخ الكبير هنرى تشارلس لى فى الجزء الثالث من كتابه الحجة «تاريخ محكمة التفتيش الإسبانية» قصة تعذيب امرأة بائسة تدعى ألفيرا ديا كامبو، غيرت فراش سريرها وامتنعت عن أكل لحم الخنزير يوم السبت، فاقتادها حراس محاكم التفتيش لترى بنفسها آلات التعذيب التى سوف تستخدم معها كى تعترف بهرطقتها، وما إن رأت المسكينة آلات التعذيب حتى أصابها الرعب المروع وقالت لحراسها إنها على استعداد للاعتراف بأى شىء يريدونه منها، ولكن استعطافها ذهب أدراج الرياح، فقد أصر المحقق على أنها تتظاهر بالمسيحية فى حين أنها تمارس الطقوس اليهودية، وعبثًا قالت المرأة إنها لا تحب أكل لحم الخنزير؛ لأنه يجعلها راغبة فى التقيؤ، وأنها غيرت فراشها؛ لأنه اتسخ، وأنها على استعداد للاعتراف بأى شىء يرغبون فيه، غير أن الحراس مضوا فى تعذيبها وأحكموا ربط ذراعها بالحبال، فشعرت أن مفاصلها قد انخلعت من مكانها، وبسبب شدة التعذيب أصيب عقلها بالاضطراب واعترفت بالباطل بأنها تدين باليهودية حتى تتخلص من عذابها، وإمعانًا فى تعذيبها قام الحراس بإحضار طبق ملىء بالفئران وأشعلوا النار بداخله ليلقوا به على بطن المرأة وهى عارية تمامًا فتلسعها النار كما تنهش الفئران جسدها فيجن جنونها.

الذراع العلمانية والعمل الإيمانى

من الغريب أن نرى محاكم التفتيش ترسل ضحاياها إلى حتفهم، ثم تتنصل من مسئوليتها عن ذلك وتغسل يديها من دمهم المراق، مبررة تنصلها بأن العقيدة المسيحية تحظر على المؤمنين بها سفك دم البشر. ويذكرنا هذا باللعب بالألفاظ التى درجت عليه محاكم التفتيش، فهى تحظر تكرار التعذيب ولا ترى غضاضة فى تعليقه، أى إعادة توقيعه بعد انقضاء فترة زمنية معينة، ومن دلائل هذا التلاعب بالألفاظ قيام محكمة التفتيش بتسليم أى مهرطق تفشل فى هدايته للذراع العلمانية (أو السلطة المدنية)، كى تتصرف معه التصرف المناسب. وبمجرد قيام محكمة التفتيش بطرد المهرطق أو استبعاده من الكنيسة، يصبح هذا المهرطق خارج الكنيسة وبلا أية حقوق مدنية أو سند قانونى يحميه، وتحت رحمة الذراع العلمانى (أى المدنى) تمامًا. وكان الذراع المدنى الذى يتولى إحراق المهرطقين وتوقيع العقاب عليهم يمنى المهرطقين التائبين بإظهار نوع من الرحمة إزاءهم، وكانت أقصى درجات الرحمة هى القيام بخنقهم قبل الإلقاء بهم فى النار حتى يموتوا قبل أن يتلظوا بها. والجدير بالذكر أن المرسوم الذى استنه البابا إينوسنت الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) أمر السلطة المدنية بتنفيذ أوامر الحرق التى تصدرها محاكم التفتيش. وكان هذا العمل البربرى باسم المسيحية، يتم فى ميدان عام يسمى باللغة الإسبانية «عملًا إيمانيًّا» (auto de fe). وكان المحقق فى محاكم التفتيش يتمتع بسلطات واسعة منها إصدار صكوك غفران الخطايا.. ولم يكن لأى مخلوق مهما علا شأنه أى سلطان عليه، فهو يخضع فقط لسلطة البابا، وكان المحقق يستعين بمجموعة كبيرة من الأفراد فى أداء مهام وظيفته مثل القساوسة والمرافقين المألوفين والكتبة، فكان القساوسة ينوبون عن المحقق ويقومون بعمله فى حالة انشغاله بموضوع بالغ الأهمية.

وكانت مهمة المرافقين اصطحاب المحقق فى روحاته وغدواته ومعرفة كل تفاصيل القضايا ومناقشتها مع المحقق وإسداء النصح له أحيانًا.

أما المألوفون فهم الحرس الشخصى للمحقق الذين يحق لهم حمل السلاح للدفاع عنه إذا لزم الأمر، وكان المألوفون يضطلعون بمهمة زيارة المهرطقين فى سجونهم وحثهم على التوبة، وكان «المألوف» يتخفى فى هيئة الناصح الأمين الذى يريد للمهرطق الخير حتى يتمكن من استدراجه فى الكلام وتصيد كلمة قد يزلف بها لسانه، ومعنى هذا أن المحقق استعان بالمألوفين للتجسس على ضحاياه.

وتتلخص وظيفة الكاتب فى تسجيل أسئلة المحققين وإجابة المهرطقين عنها وترجمتها من

اللغات الدارجة إلى اللغة اللاتينية، ويرجع الفضل إلى تسجيلاتهم ووثائقهم فى الكشف عما كان يحدث فى محاكم التفتيش فى عصور الظلام.

وأيضًا كانت محاكم التفتيش تستعين بالأساقفة ورؤساء الأديرة وأحيانًا بعض المحامين، غير أن علاقة الأساقفة بالمحققين كانت فى الأغلب الأعم متوترة بسبب تنازعهم على السلطة، وخاصة لأن الأساقفة كانوا ينظرون فى أمور الهرطقة والمروق على الدين قبل إنشاء محاكم التفتيش.

وكما كانت الهرطقة درجات كانت سجون المهرطقين تتفاوت فى درجات الراحة، فقد خصص أفضلها للذين يمارسون تعدد الزوجات، كما خصصت السجون الأسوأ منها لخدام محاكم التفتيش المتقاعسين فى أداء واجبهم، أما أسوأها جميعًا ـ وهى تكتظ بالفئران والحشرات ـ فقد خصصت للمهرطقين، ولم تكن جريمة الزنا تخضع لسلطان محاكم التفتيش.

ويذهب اللاهوتى لودوڤيكو أبارامو إلى أن الله كما يصوره سفر التكوين هو أول محقق عرفه العالم، فهو الذى عاقب آدم وحواء على عصيانهما وهو الذى قام بمصادرة ممتلكاتهما.

وقد أعدت محاكم التفتيش لباسًا أطلقت عليه لباس العار، ويعتبر القديس دومينيك أول من استحدث هذا اللباس الخشن للتائبين، ولكن محاكم التفتيش وبخاصة توركويمادا، طورت هذا اللبس بحيث أصبح أكثر تعذيبًا للبدن وأكثر تميزًا للتفريق بينه وبين ملابس الكاثوليك الصالحين.

كانت محاكم التفتيش تعطى المهرطقين التائبين فرصة الرجوع إلى أحضان الكنيسة، وكانت تحكم عليهم بالسير فى مواكب وهم عراة الجسد من الخصر إلى ما أعلاه، يتقدمهم المألوفون أو الحراس، وكان كل تائب يحمل فى يده شمعة غير موقدة كرمز يدل على أن الكنيسة لم تقبل بعد عودته إليها، ولا يسمح له بإضاءة الشمعة إلا بعد قبول الكنيسة عودته إليها. ويقتاد التائبون إلى داخل الكاتدرائية ليستقبلهم المحققون، ثم يقوم التائب بتلاوة أسماء المذنبين والمذنبات وتحديد نوع فريضة التوبة المفروضة عليهم، وكنوع من الكفارة يتعين عليهم السير حفاة الأقدام وعراة الرءوس وقد تجردوا من ثيابهم من الخصر إلى أعلى على مدار ستة أيام جُمع متتالية.. وكانوا يجلدون أثناء السير، كما كان محظورًا عليهم حتى بعد توقيع العقاب عليهم شغل الوظائف العامة ولبس الملابس القشيبة والتزين بالحلى والمجوهرات، وأيضًا تعين عليهم إعطاء «خُمس» ممتلكاتهم إلى محاكم التفتيش لاستخدام عائدها فى الحرب ضد المسلمين فى غرناطة، أما إذا انتكس التائب فإن هذه المحاكم تتخلى عنه وتتركه لمصيره الفاجع.

وكان إصدار العمل الإيمانى معناه كما ذكرنا التخلى عن المهرطق وتسليمه إلى السلطة المدنية لتنفيذ عقوبة الموت فيه، وكان هذا الاحتفال المرعب يجذب إليه النظارة من كل حدب وصوب فهو مشحون بالإثارة والرعب، وحتى لا ينسى الجمهور أن العمل الإيمانى عمل دينى فى المقام الأول، فقد كان يبدأ فى صبيحة يوم الأحد المقدس وينتهى بغروب الشمس.

وكان المهرطق المنتكس (أى الراجع عن توبته) يقتاد إلى سراى المحكمة عشية يوم الحرق لتبليغه بتنفيذ عقوبة الموت حرقًا فى اليوم التالى، ومن باب الرحمة كانت المحكمة تطلب من القساوسة المكوث مع المحكوم عليه فى زنزانته طول الليل لهداية روحه الهالكة قبل أن يلقى ربه، وإذا أظهر المحكوم عليه التوبة أمرت المحكمة بخنقه قبل إشعال النار فى جسده حتى توفر عليه الوجيعة والألم، وفيما يلى وصف مفصل لموكب الرعب:

يتقدم الموكب حملة الصليب الأخضر الملفوف بقماش أسود، ويسير خلفه مباشرة رهط المألوفين أو الحراس، ثم القسيس الذى يقيم القداس، ثم سدة مصنوعة من القطيفة وموشاة بالذهب يحملها أربعة أشخاص، وكان القسيس يحمل القرابين أثناء سيره وسط جمهور الراكعين، ثم يأتى عدد أكبر من المألوفين وخلفهم المساجين الذين سبق تعذيبهم أو اللابسين لباس العار. وكان يصحب كل سجين محكوم عليه بالموت حرقًا راهبان من طائفة الدومينيكان يلبسان قمصانًا بيضاء وأغطية رأس ووجه سوداء، وخلف المساجين يسير حاملو الأعمدة الخضراء وقد علقت عليها دمى تصور المتهمين الذين ثبت عليهم تهمة الهرطقة ولكنهم تمكنوا من الهرب من إسپانيا، ثم يأتى دور أجداث المهرطقين التى استخرجت من قبورها، وفى الخلف يسير المحققون تتقدمهم الأعلام وعلى جانبها صورة الشعار الباباوى وقد تعانق معه شعار الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا، وعلى الجانب الآخر من الأعلام شعار التفتيش، وفى ذيل الموكب سار صغار الموظفين يحيط بهم الجنود على جانبى الطريق. ويتجه الموكب إلى الميدان الذى تقع فيه الكاتدرائية فى انتظار الذروة الدرامية المتمثلة فى اختيار مكان الحرق. وحرصًا من جانب المحققين الذين يراعون شكليات العدالة، يستدعى كل متهم أمام المحكمة التى تتلو عليه سلسلة الجرائم التى اقترفها، ثم يجىء دور إلقاء موعظة بهذه المناسبة تستغرق فى العادة وقتًا طويلًا بسبب كثرة أعداد المحكوم عليهم. وفى ميدان الكاتدرائية تقام منصات مكسوة بالقماش الأسود وقد تراصت عليها المقاعد المخصصة لجلوس المهرطقين حتى يستطيع جمهور المتفرجين أن يشاهدهم عن كثب. وفى كثير من الأحيان كان الجمهور يتسلى بإلقاء القاذورات على هؤلاء المساجين أو يداعبهم بإشعال النار فى لحاهم أى «بحلقها» على حد القول المازح. وكان الرهبان يجلسون بجوار المساجين يحثونهم على الاعتراف

بذنبهم وإعلان توبتهم. وكانت الأعمدة تقام حول المنصات وفى أسفلها أكوام الحطب التى تنتظر إشعال النار فيها، وكذلك جثث المهرطقين التى أخرجت من قبورها.

وبعد انتهاء الكاهن من القداس يلقى خطابًا مطولًا، ثم يجىء كبير المحققين ليرفع ذراعه إيذانًا بقسمه الولاء لمحاكم التفتيش، وهو قسم يتعين على جمهور الحاضرين تكراره وهم راكعون، كما يتعين عليهم التأكيد على كامل ولائهم للمكتب المقدس، وفى حالة حضور الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا الاحتفال، كان يحظر على الجمهور القسم بولائه لمحاكم التفتيش نظرًا لخضوعها خضوعًا مباشرًا لسيطرة البابا، وذلك لأن هذين الملكين أصرا على استقلال إسپانيا عن الكرسى البابوى فى روما. ومن المعروف تاريخيًّا أن بعض الحكام، وعلى رأسهم الإمبراطور شارل، رفض أن يقسم بالولاء لمحاكم التفتيش، ولكن ابنه فيليپ الثانى كان أول من أقسم على ولائه لها، وكانت تلاوة جرائم المهرطقين تبدأ بالجرائم الأخف ثم تنتهى بالجرائم التى تعاقب بالحرق.

وفى مذبح الكاتدرائية يرتفع صوت المحققين ليناشد السلطة المدنية أن تترفق بالمهرطق فلا تريق دمه، كما لو كانت إراقة الدماء أكثر رحمة من الموت حرقًا.

وأخيرًا يقع الاختيار على مكان الحرق فترفع فيه الأعمدة أو الصوارى وفى أسفلها أكوام الحطب، وكثيرًا ما كان المحكوم عليهم بالحرق وهم أحياء يلتمسون التصالح مع الكنيسة والعودة إلى أحضانها الدافئة كى ينعموا بالخنق قبل امتداد اللهب إلى أجسامهم، وبينما أجساد البعض منهم تتلظى بالنار الموقدة ترتفع عقائر الرهبان بالتراتيل والترانيم، وتدق أجراس الكنائس وتنشر رائحة البخور، وكان من النادر أن يمر شهر واحد دون أن يتكرر هذا المنظر المروع الذى تشيب له الولدان.

***